

هُويّة المعرفة

فتحي حسن ملكاوي

سبق أن برّنا استعمال مصطلح الإسلامية في مشروع "إسلامية المعرفة" في محاولة لتأكيد الهدف التحريضي من جهود الأسلمة والإسلامية في العمل العلمي والمعرفي المعاصر، والهدف النقدي والتقويمي للمعرفة المعاصرة وإحالاتها الفلسفية وأسسها النظرية، والهدف العملي في توظيف المعرفة للأغراض المشروعة في الواقع الإسلامي.¹

لكن استعمال مصطلح "إسلامية المعرفة" يواجه قضية الهوية، والتساؤل حول إمكانية انتماء المعرفة إلى دائرة حضارية معيّنة أو انتسابها إلى دين أو قومية أو أي صفة أخرى تسحب عليه هويتها، ويصحّ عندها القول بـ"إسلامية المعرفة"؛ أو أن المعرفة، والعلم بمعناه الأعمّ، هي نتاج المنهج العلمي الذي تواصلت جهود البشرية عبر أجيالها المتعاقبة لاكتشافه، فإذا به منهج واحد يتفق عليه العلماء من مختلف المجالات المعرفية الطبيعية والإنسانية والاجتماعية على اختلاف معتقداتهم ومنطلقاتهم الفلسفية وبيئاتهم الاجتماعية والتزاماتهم القيمية، وبالتالي تكون المعرفة موضوعية وليست ذاتية، أي أنها مستقلة عن المعتقد والبيئة والقيم الخاصة بالعالم أو الباحث، وهي موضوعية أيضاً بوصفها نتاج اتفاق كل العلماء على إنتاجها بالصورة نفسها، ويكون استعمال مصطلح "إسلامية المعرفة" على هذا الأساس مستهجنًا ومستنكرًا.

إن الموضوعية والذاتية طريقتان متعارضتان لمسألة تفاعل الفرد مع العالم الخارجي، وكلاهما ينطلقان من افتراض أن الموضوع الذي تُكتسب الخبرة فيه، والذات التي تُكتسب هذه الخبرة أمران منفصلان، وأن أحدهما أكثر أهمية من الآخر في المعادلة. فالموضوعية تعني أن الخصائص الطبيعية للعالم تحدد خبرة المشاهد، ويمكن أن تدرك بشكل تام، أما الذاتية فتعني أن النظرة أو الفكرة التي يحملها الإنسان تنقل إلى الخبرة شيئاً أكثر مما هو كامن في العالم، وبالتالي تكوّن حكمه ومعرفته. ومن الناحية الفلسفية فإن التعارض بين الموضوعية والذاتية هي مسألة معرفية؛ أي مسألة كون ملامح

¹ أنظر كلمة التحرير في العدد الثاني والعشرين من "إسلامية المعرفة" بعنوان: الإسلامية في مشروع إسلامية المعرفة.

العالم الخارجي كامنة فيه أم هي ما تزودنا به عقولنا، وبطريقة أكثر أهمية هي مسألة أخلاقية؛ فهل كون الشيء جيداً مثلاً يعزى إلى صفة الجودة الكامنة فيه أو يعزى إلى أنه اعتبر جيداً بطريقة اصطلاحية، وفي كلا الحالتين ليس ثمة معيار مطلق للجودة؟!²

ويمكن التمييز بين وجهين في مفهوم الموضوعية كما يبحثها الفلاسفة ويستعملونها؛ أحدهما مفهوم وجودي Ontological يتعلق بكون الشيء موضوعياً إن كان موجوداً في الواقع بشكل مستقل عن معرفة الإنسان أو تصوّره عنه أو وعيه به، مثل سائر الأشياء المادية المعروفة بأسمائها وصفاتها كالشجرة والصخرة والنجم، وإلى درجة أقل أشياء غير مادية مثل العدد والمجموعة والخصائص الرئيسية مثل الحقائق والزمان والمكان. وفي المقابل فإن الأمور الذاتية هي تلك الأمور التي لا تكون موجودة على حالتها لو كانت غير معروفة متصورة ومعقولة من واحد أو أكثر من البشر، وأمثلتها الأحاسيس والأحلام والذكريات وبعض الحقائق الفرعية مثل خصائص الجمال والقيم الخلقية.

أما الوجه الآخر لمفهوم الموضوعية فهو وجه معرفي Epistemological، وفيه لا يكون التمييز بين الموضوعية والذاتية على أساس استقلالية الأشياء أو اعتماديتها، وإنما تحدد درجتين من الكسب العقلي؛ فأمر مثل الأحكام والمعتقدات والنظريات والمفاهيم تكون موضوعية أو ذاتية، فالموضوعية هنا هي خاصية لمحتويات الفعل العقلي أو الحالة الذهنية؛ فمثلاً يكون للاعتقاد بأن سرعة الضوء 300,000 كم/ثانية محتوى موضوعي، بينما يكون الحكم بأن موسيقى فنان معين أعظم من موسيقى فنان آخر حكماً ذاتياً.³

ومن تطبيقات فكرة الموضوعية التي تم الترويج لها على نطاق واسع في ميدان القياس والتقويم التربوي مسألة الاختبارات المقننة Standardized Tests التي وضع الأمريكيون فيها ثقتهم لفترة طويلة، وانتقلت إلى معظم بلدان العالم باسم الاختبارات الموضوعية أو الأمريكية أحياناً، مع أن كثيراً من الباحثين في أمريكا قد كشفوا عن عيوب أساسية في فكرة الاختبار وفي منطقها، ولم يثبت أنها مؤشرات موثوقة لإمكانات الأفراد بل إنها باختصار مأساة

² Rohmann, Chris. *World of Ideas: A Dictionary of Important Theories, Concepts, and Beliefs*. New York: Ballantine Books. 1999, p 288.

³ Dancy, J. & Sosa. E. *A Companion to Epistemology*. Oxford: Blackwell. 1992, pp 310-312.

"مربعة"⁴ إن درجات هذه الاختبارات تصنف الناس على خطوط الجنس والطبقة والعرق سواءً كان ذلك في اختبارات الذكاء أو اختبارات القبول الجامعية. وقد طرحت أسئلة جوهرية حول ما إذا كان ثمة شيء ما في طبيعة هذه الاختبارات نفسها - مثل طريقة الاختيار من متعدد التي تسمح بمستوى عالٍ من التقنين - هو الذي يكافئ بعض الأشكال من عمليات التفكير بينما يعاقب بعضها الآخر؛ إذ من الممكن أن شخصاً ما لديه مشكلة مع هذا الاختبار لأنه أكثر ذكاءً من الاختبار نفسه! "إن الاختبارات المقننة التي تسمى أحياناً الموضوعية أبعد عن الموضوعية مما يظنّ كثير من الأمريكيين، إنها في الواقع متجذرة في أحكام معرفية معينة عن المعرفة وطرق التعرّف. إن هذه الاختبارات المصاغة على شكل اختيار من متعدد ليست موضوعية بطريقة مقررة سلفاً لأن إجاباتها المقدمة يمكن مسحها وتصحيحها بواسطة الكمبيوتر، إنها ذاتية بنفس الطريقة التي يكون فيها المؤرخ ذاتياً عندما يختار أي الأبعاد في حقبة تاريخية معينة يؤكد أنها مهمة تاريخياً، أو بنفس الطريقة التي يقرر فيها مراسل صحيفة ما يعدّ خبراً وما لا يعدّ... وإن تحديد الاختيارات والأحكام عما يعدّ مهماً لقياسه مما لا يعدّ مهماً يحيل الاختبارات المقننة إلى تمرين حول الموضوعية التي يراد للناس أن يعتقدوا بها، وبالفعل فإن البيّنات التجريبية تؤكد بطريقة متزايدة أن شكل الاختبار أمر مهم ويقرر نتيجة الاختبار..."⁵

إن قضية هوية المعرفة هذه انعكاس لقضية "المنهج العلمي" الذي شاع بين المشتغلين بالعلم وفلسفته وتاريخه، وساد بين المثقفين في الغرب والشرق عامة أنه "المنهج العلمي" الواحد الأحد!!

يتبنى المذهب الوضعي الذي ساد الغرب الأوروبي منذ عصر التنوير في القرن السادس عشر فكرة المنهج العلمي الصارم بما يتضمنه من اعتماد الملاحظات المحسوسة والتجارب المضبوطة والقياس الدقيق. وبالتالي تكون المعرفة موضوعية ويكون خط التقدم العلمي والثقافي والتطور الحضاري خطأً منتظماً في صعوده. وتتطلب هذه الرؤية بطبيعة الحال إقصاء الأفكار الميتافيزيقية والغيبية التي تقيد حركة البحث والتطور وتكرس التخلف! ولا غرابة في أن تعزى إنجازات الحداثة والتنوير في الغرب إلى هذا المذهب.

⁴ Sacks, Peter. *Standardized Minds: The High Price of America's Testing Culture and What we Can Do to Change it*. Cambridge, MA: Perseus Publishing. 1999, p201.

وقد انتقلت أفكار الحداثة واتجاهات التنوير إلى العالم العربي والإسلامي منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وتبناها بعض دعاة الإصلاح على الصعيد الفكري والسياسي والاجتماعي، ثم وجدت هذه الأفكار ترويحاً واسعاً مع دخول الحركة الشيوعية إلى العالم العربي والإسلامي التي جندت لهذه الأفكار كل الإمكانيات الإعلامية والتعليمية. لذلك ارتبطت الحركات الوطنية والأممية التي تستحق المشروعية في هذه الأجواء بالعلمانية واستهجان أية محاولة لتعزيز أي دور إيجابي للدين في حركة الفكر وتطور المجتمع.

وفي الوقت الذي كان دعاة الوضعية والحداثة في العالم الإسلامي يمعنون في رفع أصواتهم لتبني مشاريع التطوير والتنمية على الطريقة الغربية، ويسكتون كل الأصوات التي تدعو إلى التأني والتبصر في تقييم التجربة الغربية، كان النشاط العلمي في الغرب يقوم على قدم وساق وتذهب النظريات العلمية مذاهب شتى، وتعمق البحوث والدراسات حول تاريخ العلم وفلسفة العلم وتحليل أفكار الحداثة والتطور ونقدها، دون أن يكون لذلك صدئ يذكر في العالم الإسلامي، لا في مجال توظيف العلم والتقانة في تطوير المجتمعات وتنميتها، ولا في مجال الاطلاع على النظريات والنماذج التفسيرية ومتابعة ما يدور في ميادينها ومدارسها من حوار وجدل ونقد.

ولعلّ من المناسب في هذا السياق التأكيد على أن المسألة في سياق البحث العلمي والتحليل الفلسفي في الغرب لا تزال وربما ستبقى موضع جدل.

يقول كارل بوبر Karl Popper:⁶ "إن ظاهرة المعرفة الإنسانية هي من غير شك أعظم معجزة في هذا الكون، وستبقى مشكلة بلا حلّ قريب، وإن نظرية المعرفة - التي سادت منذ ديكارت وهوبز وجون لوك ومدارسهم التي تتضمن هيوم وتوماس ريد - كانت تؤكد على الخاصية الذاتية للمعرفة بوصفها وجهاً من وجوه الاعتقاد والإيمان البشري، وأن المعرفة العلمية هي نوع خاص من المعرفة الإنسانية." ويريد المؤلف في كتابه هذا أن "يكسر هذا التقليد الذي يمكن أن يرجع تاريخه إلى أرسطو، ويصفه بأنه يمثل "نظرية للمعرفة تقوم على التفكير البدهي العام" commonsense ويرى أن "هذا التفسير للمعرفة قد ساد الفلسفة الغربية وأعطاهها الصفة الذاتية قروناً عديدة".

⁶ كارل بوبر فيلسوف معاصر ألماني النشأة استقر فيما بعد في بريطانيا، وعرف بكتاباته الفلسفية وأهمها: منطق الاكتشاف العلمي (1957) وبناء النظريات ونقضها (1963)، والمعرفة الموضوعية: منهج تطوري (1972).

ويحتتم مقدمته بالقول: "إنني أزعّم أنني حاولت في كتابي هذا نسف هذا التقليد لصالح نظرية موضوعية المعرفة، وحتى لو كان هذا الزعم جريئاً فإنني لست على استعداد أن أعتذر عنه...".⁷

وفي تحديد بوبر للمعرفة الموضوعية يميز بين عوالم ثلاثة: العالم الأول هو العالم الطبيعي، والعالم الثاني هو عالم الإدراك البشري، والعالم الثالث هو المحتوى المنطقي المدوّن في الكتب والمراجع ومصادر البيانات.

وتنحصر المعرفة الموضوعية في هذا العالم الثالث فقط المكون من نظريات ذات بناء منطقي محكم. وتعد النظرية علمية عندما تكون قابلة للاختبار، ولذلك فهي عرضة باستمرار للنقض، وبهذا المعنى فليس ثمة حقيقة مطلقة، ودور العلم ليس هو إثبات الحقيقة وإنما السعي المتواصل لتوفير الأولى لنقضها. ومع أن نظرية المعرفة التي يتبناها بوبر لا تخلو من فائدة في فهم تطور المعرفة الإنسانية، فإن نزعتة المثالية (الأفلاطونية) ورفضه التام للاستقراء، وتناقضه في اعتماد نقض النظرية بمشاهدة تجريبية واحدة، سهّلت على النقاد اتهامه بمحاولة الجمع بين العقلانية واللاعقلانية.

ولعل أهم ما هزّ الأوساط العلمية المشتغلة بفلسفة العلم وتاريخه في النصف الثاني من القرن العشرين كتاب توماس كون⁸ Kuhn حول بنية الثورات العلمية الذي قدم فيه مفهوم النموذج القياسي Paradigm لتفسير تطور المعرفة العلمية. وخلاصة نظرية "كون" أن الجماعة العلمية تعمل عادة ضمن الأعراف والأدوات السائدة في فترة معينة والتي تمثل نموذجاً تفسيرياً للعالم ضمن ما يسميه بالعلم النمطي Normal Science. ثم تتكاثر الحالات والأمثلة الشاذة التي لا تنسجم مع ذلك التفسير فتحدث أزمة تستدعي البحث عن نموذج تفسيري جديد يبدأ تدريجياً حتى يستقر تماماً فيحدث الانقلاب في النموذج Paradigm shift أو الثورة العلمية، ويتولد من ذلك أعراف وأدوات جديدة تسود فترة زمنية أخرى، ثم لا تلبث أن تلاحظ الحالات الشاذة وتتكرر الثورة العلمية، وهكذا. ويرى كون أنه لا يوجد تفسير منطقي يبرر القول بتفوق نموذج تفسيري على غيره بحيث يلجأ العلماء بطريقة عقلانية إلى التغيير. وهذا يعني أنه لا توجد حقيقة مطلقة وأن كل الحقائق تكون صحيحة في إطار النموذج التفسيري السائد. والأهم من ذلك أن العامل الأساس في حدوث التغيير يرتبط بالجماعة العلمية ونوعية الشخصيات المؤثرة فيها والظروف

⁷ Popper, Karl. *Objective Knowledge: An Evolutionary Approach*. Oxford, UK: Clarendon Press. P i.

⁸ Kuhn, T. *The Structure of Scientific Revolution*. 2nd Edition. Chicago: University of Chicago Press. 1970.

الاجتماعية السائدة. وهكذا يلتقي "كون" مع المذهب الفلسفي الذي يقول بالنسبية أو النسبانية Relativism الذي يعتنقه دعاة ما بعد الحداثة، وهو مذهب فلسفي لا يعترف بإمكانية وجود حقيقة موضوعية مستقلة عن سياقها الاجتماعي والتاريخي.

وقد تبنى المذهب النسبي (النسباني) كثير من الباحثين والفلاسفة في الغرب. وكان منهم فيرابند⁹ الذي يدعو إلى نظرية للمعرفة (ابستمولوجيا) تقوم على الفوضى. ويستنكر وجود أي منهج علمي، ولا يميز بين العلم والدين والخرافة وأنه ليس للعلم أساس منطقي. وأن كل شيء يمكن أن يكون صحيحاً.¹⁰

وقد كرس التطورات المتلاحقة في ميكانيكا الكم Quantum Mechanics ومبدأ عدم التعيين أو عدم اليقين Uncertainty Principle في القرن العشرين منحى خاصاً في فهم ظواهر العلم، يستحيل فيه استعمال القياس العلمي التقليدي الذي يتعامل مع الحقائق الموضوعية، ويعتمد بدلاً من ذلك المنطق التجريبي الذاتي غير الموضوعي. ويفرض القول بمبدأ السببية.

وتتعدد الأمور أكثر عندما تضاف إلى ميكانيكا الكم نظرية الفوضى ونظرية التعقيد، مما أدى إلى القول بأن العلم في أزمة وأن أزمة العلم جاءت من داخله. فبعد أن استقر الفكر الإنساني في عهد الحداثة والتنوير على اعتماد المنهج العلمي، القائم على الموضوعية والواقعية، والتعامل مع أشياء الطبيعية وظواهرها المحسوسة، وإسقاط الميتافيزيقا والأفكار الغيبية، تأتي هذه الأزمة لتهدد كيان المنهج العلمي وتطلق العنان لجموح اللاعقلانية وتبرر القول بأن الفيزياء هي نوع من الميتافيزيقا وأن الفيزياء النظرية على وجه الخصوص فرع من اللاهوت.¹¹

وقد كشف كثير من النقد الذي وجه لمشروع إسلامية المعرفة من منطلق التفكير الوضعي والحداثي، ليس عن جهل بالمبادئ الإسلامية للمنهجية الإسلامية فحسب، بل عن جهل أيضاً بالتطورات التي حدثت في مجال فلسفة العلم ونظرية المعرفة في الغرب، فتيارات الفكر التفكيكي وتيارات ما بعد الحداثة ومدارس فلسفة العلم قد قوّضت

⁹ فيرابند فيلسوف معاصر نسماوي الأصل استقر في أمريكا، واشتهر بكتابه "ضد المنهج: موجز لنظرية فوضوية عن المعرفة صدر عام 1975، ثم أصدر كتاباً آخر بعنوان "وداعاً للعقل" عام 1988.

¹⁰ Feyerabend, P. *Against Method: Outlines of an Anarchistic Theory of Knowledge*. London: New Left Press, 1975.

¹¹ شوك: علي، العلم بين الفلسفة والأيدولوجيا، النهج عدد 28، خريف 2001، ص 116-170.

أركان الوضعية التقليدية، ولم تبق مجالاً للقول بوجود أية حقيقة مطلقة، ونقلت أفكاراً مثل: موضوعية المعرفة، وحتمية التقدم، إلى قائمة الخرافات، وفتحت المجال للتسوية بين العلم الطبيعي التجريبي، وما وراء الطبيعة والتفكير الغيبي الديني.

وإذا كانت المنهجية الإسلامية في التفكير تستدخل بالضرورة الخبرة الإنسانية وتطوراتها عند المسلمين وغيرهم وقد تستأنس بهذه الخبرة بعد تحليلها ونقدها، فإنها تدعو المفكر المسلم إلى أن يبقى حذراً، فلا يذهب بعيداً في الاستشهاد بالتطورات التي حدثت في الغرب لتبرير مشروعية التفكير الديني الذي يعتمد الوحي مصدراً للمعرفة إلى جانب الكون.

فإن الضلال الذي جاء به الفكر الغربي في إنكار الوحي والدين جملة، عندما طور النظريات الوضعية وجعل العقل هو الإله الوحيد والخبرة الحسية هي البرهان الوحيد، لا يقل عن الضلال الذي جاء به هذا الفكر الغربي نفسه في إنكار للحقائق المطلقة والترويج لنسبية الحقائق والقيم في كل شيء، والتسوية بين العلم والخرافة!

وإذا كان الاستشهاد بتطورات الفكر الغربي يكون مفيداً في تذكير نقاد إسلامية المعرفة على تحافت الأسس التي ينطلقون منها في نقدهم، فإنه يكون مضرراً في اعتماد هذه التطورات أساساً لمشروعية إسلامية المعرفة.

وتبقى المنهجية الإسلامية من قبل ومن بعد قائمة على أسس قوية من اعتماد المنهج العلمي بما يتضمنه من التجارب العملية، والملاحظات الحسية، والقياس المادي الدقيق، واستقراء الأشياء والأحداث والظواهر، للتوصل إلى الحقائق والمبادئ والقوانين التي تتصف بالموضوعية في عالم الكون المشهود، وفي الوقت نفسه تقوم هذه المنهجية الإسلامية على اعتماد الوحي مصدراً للهداية في بناء الرؤية الكونية الكلية لفهم الكثير من أسرار الكون والنفس والحياة، والمصدر الوحيد للمعرفة عن عالم الغيب المستور.

وتبقى المنهجية الإسلامية كذلك قائمة على أسس قوية ومستقرة في اعتماد الحس والعقل معاً أداتين متكاملتين للمعرفة تعملان معاً في مجال الكون المشهود وتعملان معاً في مجال الغيب المستور. وفي المنهجية الإسلامية لا يزال الفضاء المعرفي يتسع ويرتفع، نتيجة تراكم الخبرة الإنسانية، وما يفتح الله الخالق به على الإنسان المخلوق من علم،

فيتجدد فهم الإنسان المسلم للكون، ويتجدد فهمه للوحي، دون أن تتزعزع ثقته بخالقه أو بنفسه أو بمصادر معرفته أو بأدوات هذه المعرفة.

فلا غرابة إذن أن يؤمن المسلم بأن من المعارف ما هو معرفة موضوعية قائمة بذاتها مستقلة عن ذات الإنسان، سواء جاء الوحي بهذه المعرفة¹² أو قادت إليها الخبرة الحسية بحكم اضطراد الظواهر وانتظام سلوك الأشياء؛¹³ فهذه الحقائق وما يرتبط بها من قوانين طبيعية هي بالتالي سنن كونية أرادها الله الخالق سبحانه، ولا تجد لها تحويلاً ولا تبديلاً. ومثلها أيضاً سنن تاريخية ونفسية واجتماعية، يؤدي التأمل والتبصر فيها بإعمال العقل وممارسة المنهج العلمي في البحث والاستقصاء إلى حقائق تتصف بالثبات والموضوعية.

ومع ذلك فليس ثمة ما يمنع من القول بالتجدد والتطور في خبرة الإنسان ومعارفه عن هذه السنن وكيفية فهمها وتفسيرها وتوظيفها.

أما الهوية الإسلامية للمعرفة فهي هوية للعالم المسلم في فهمه للمعرفة في جميع ميادينها في إطار الرؤية الإسلامية الكلية، وتفسيره لهذه المعرفة بمنهجية تكاملية تجمع بين القراءتين قراءة الكون وقراءة الوحي. وليس ثمة ما يمنع أن تكون هذه المعرفة موضوعية في أي من هذه الميادين الطبيعية أو الإنسانية أو النفسية أو التشريعية، عندما يقوم عليها الدليل المناسب، وتكون وصفاً صادقاً للواقع المستقل عن فهم الإنسان له. وقد لا تكون هذه المعرفة وصفاً تام الصدق في مرحلة معينة أو عند فئة من الناس، ويكتمل صدقه فيما بعد. وقد يكون وصفاً غير صادق بتاتاً، فيُستبدل به وصفاً آخر "يوم يأتي تأويله.." (الأعراف: 53) في هذه الدار الدنيا بمزيد من البحث والتثبت والتبين، وقد لا يظهر الوصف الصادق الدقيق لبعض الناس أو لجميعهم إلا في الدار الآخرة.

¹² مثل قوله تعالى: "فاعلم أنه لا إله إلا الله... (محمد: 19)، و"إن هذا هو حق اليقين" (الواقعة: 95) في مسائل الذات الإلهية والدار الآخرة من

مسائل الغيب المطلق؛ و"وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين" (الروم: 2-3) من مسائل الغيب النسبي.

¹³ مثل مسائل شروق الشمس وغروبها، ووجود العناصر الكيميائية وخصائصها، عندما ينظر إليها في ضوء الواقع والتاريخ.

المعرفة تكون موضوعية عندما تأتي نتيجةً للمنهج العلمي المحكم المنضبط، ويقوم الدليل على كونها وصفاً صادقاً للواقع، أي عندما تصبح علماً – كما يحلو القول بذلك لبعض الباحثين.¹⁴ والعالم أو الباحث المسلم أولى الناس بالسعي إلى مثل هذه المعرفة الموضوعية بحكم ذلك المنهج العلمي المحكم الذي يدعو الإسلام إليه.

وهكذا فإن من العسير القول بالموضوعية المطلقة في مسائل العلوم الطبيعية والاجتماعية باعتبارها مسائل لا يمكن تفسيرها بشكل نهائي بل إن تفسيرها يخضع للمراجعة والتعديل؛ لأن المعرفة الإنسانية محدودة وتظهر باستمرار بينات جديدة تعديّل من هذا التفسير وربما تستبدل به تفسيراً جديداً تماماً. وعليه تكون المعرفة في مثل هذه الحالات معرفة نسبية لكن هذه الخاصية النسبية تخضع لقواعد موضوعية ومبادئ منطقية تتعلق بعدد البنات ذات العلاقة ونوع هذه البنات.¹⁵ والخاصية النسبية في هذا السياق تختلف عن الخاصية الذاتية الاعباطية التي تخضع للأهواء والرغبات والمزاج الشخصي. فالذاتية الاعباطية تجعل المعرفة التي يأخذ بها كل فرد صحيحة دون حاجة إلى بينات وحجج ودون إخضاعها إلى التحقيق والتثبت.

لكن هذه الخاصية النسبية تتعلق بنوع آخر من الذاتية، أقل خطراً وأهون شأناً من الأولى. إن المعرفة قد تستند إلى بينات متماسكة وحجج قوية، لكن قبولها والاقناع بها أمر ذاتي اختباري Empirical، يرتبط بمدى انسجام هذه المعرفة والحجج التي تستند إليها برؤية الفرد إلى العالم والنظام المعرفي التي يتبناه والبيئة الثقافية والتربوية التي ينشأ فيها، وربما ببعض العوامل الشخصية. والفرد الذي لا يقتنع بهذه المعرفة يعبر عن ذاتية طبيعية يمكن فهمها وتبريرها ويمكن أيضاً التحرر منها بعمليات الموازنة والترجيح.¹⁶

إن الموضوعية خاصية للمعرفة تتعلق بمدى تماسك بنائها وقوة بيناتها، أما الذاتية فهي صفة للإنسان العارف تجعله غير قادر على تبني المعرفة بطريقة حيادية؛ إذ يتعذر على الإنسان غالباً أن يتخذ موقفاً حيادياً إزاء المعارف التي

14 السيد، رضوان، في مناقشته لورقة بعنوان مشروع إسلامية المعرفة، قدمها د. فتحي ملكاوي في ندوة تيارات الفكر الإسلامي المعاصر في بيروت يومي 16 و 17 أبريل (نيسان) 2001.

15 قربان، ملحم. المنهجية والسياسة. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1986، ص 109.

16 انظر كيف يميز ملحم قربان في كتابه المنهجية والسياسة المشار إليه أعلاه بين الذاتية المطلقة الاعباطية والذاتية اللااعباطية ص 110-111 المرجع السابق. وانظر كذلك سيد أحمد عثمان في كتابه: الذاتية الناضجة: مقالات في ما وراء المنهج. القاهرة مكتبة الإنجلو المصرية، 1999.

يتلقاها، ولا بد أن تقع هذه المعارف في موقع ما بالنسبة لمجمل قناعاته ونظم الاعتقاد والمعرفة والقيم التي يتبناها، فيكون القبول أو الرفض بناءً على ذلك كله.

وأخيراً فإن صفة الموضوعية ليست قضية محسومة في الفكر الغربي المعاصر، لا في البنية المنطقية للمعرفة نفسها، ولا في طبيعة المنهج التي يقود إليها، ولا في أغراض العلماء والباحثين. والذين يستندون إلى القول بموضوعية المعرفة في نقدهم لمشروع "إسلامية المعرفة" يختارون أساساً واهناً. ومع ذلك فإن الموضوعية المطلقة إذا كانت أمراً يعسر تحقيقه، فإن الذاتية ليست شراً خالصاً ولا النسبية كذلك.